العلوم الإنسانية ومفاهيمها الحديثة

(1) منذ عام 1966م حتى يومنا ومفاهيم ومناهج العلوم الإنسانية تتجه نحو اتجاهات وتيارات جديدة تجلت بوضوح فى ميادين علم النفس ، وعلم اللغة ، وعلم الاجتماع ، والانثروبولوجيا التى تبنت منهج التحليل البنيوى من أجل فهم الظواهر الإنسانية فى ضوء علم اللسانيات الذى فتح أمام الباحثين والعلماء آفاقًا جديدة لعلم إنسانى كلى شامل هو علم التواصل العام حتى لقد أصبح التفكير اللسانى يكاد يستوعب كل علوم الإنسان . أما فى صورة علم اللغة الذى يفهم التواصل الإنسانى من خلال الرسائل اللفظية ، وأما فى صورة السيميائيات التى تدرس كل أنواع الرسائل ، وأما فى صورة الانثروبولوجيا الاجتماعية والاقتصادية التى تعنى بالبحث فى التواصل بصفة عامة [1] .

إن العلوم الإنسانية تفيد الكثير من وراء منهج التحليل البنيوى ومن وراء نتائج علم اللغة وبعض نتائج الأنثروبولوجيا . ومن أبرز سمات هذا المنهج هو اعتماده على جهاز منطقى مكون من « نماذج » وإنشاء بنيات يكون من شأنها أن تساعد الباحث أو العالم على إحالة العديد من المجالات التجريبية إلى تشكيلات صورية . ذلك من اجل الكشف عن القانون الباطن للنسق أو النظام الذى تحكمه الظاهرة الإنسانية فضلاً عن استنباطه ذلك القانون من نظرية اقتراضيه تمكن الباحث من الوقوف على بناء المعطيات حتى يتمكن من إنشاء النموذج أو النماذج انطلاقًا من هذه المعطيات نفسها من أجل العمل على الاهتداء إلى المجموع الذى ينتمى إليه هذا النموذج .

إن البنيوية منهج للبحث العلمى أحدثت ثورة فى مضمار العلوم الإنسانية . والذى يجمع بين كل من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس وغيرها

---

(1) اعتمدنا فى هذا العرض على كتاب د. زكريا إبراهيم ، مشكلة البنية ، مكتبة مصر ، القاهرة 1999م .

من العلوم هو المشروع العلمى الذى أراد تطبيقه على الظواهر الإنسانية أو البشرية .

والسمات المشتركة بين البنيات المختلفة سواء أكانت بيولوجية أو سيكولوجية أو لغوية أو اجتماعية تتمثل فى اشتراك جميع هذه الميادين فى النظر إلى البنية باعتبارها نظامًا مكتفيًا بذاته يجعل الباحث أو العالم أن يحقق فى عمله درجة عالية من المعقولية .

ومنهج التحليل البنائى لا ينظر إلى الظواهر البشرية على أنها موضوعات منعزلة تفسر كل ظاهرة منها على حدة بالاستناد إلى تاريخها الجزئى الخاص بل ينظر إلى الظواهر من خلال الحوار فيما بينهما بوصفها الدلالة العلمية الكفيلة وحدها بتفسير الكثرة المعقدة من الظواهر .

وعلى هذا الأساس نفهم أن المهمة الأساسية التى تقع على عاتق الباحث فى العلوم الإنسانية هى التصدى لكثرة من الظواهر البشرية تعقد من أجل الكشف عن نظامها الباطنى الخاص . والمبدأ الأساسى فى هذا الصدد هو أن مفهوم البنية الاجتماعية لا يرتد إلى الواقع التجريبى بل يرتبط بالنماذج التى يتبناها انطلاقًا من هذا الواقع .

والقاعدة الأساسية فى هذا الصدد أنه لا يمكن أن تكون هناك « بنية » إلا حيث توجد « لغة » والدليل على ذلك أن الباحث فى مضمار علم النفس حين يتحدث عن اللاشعور بوصفه بنية أو عن الأجسام فإنه يعنى أن هذه الأجسام لها لغتها الخاصة التى تنطق بها ألا وهى لغة الأعراض أو الأمارات وكذلك أيضًا يمكننا أن نتحدث عن الأشياء باعتبار أنها تملك ضربا من اللغة ألا وهى لغة العلامات . وهكذا يمكن للباحث فى مضمار مجالات المعرفة البشرية أن يتعرف فى كل شىء على لغته الخاصة ألا وهى لغة الرموز أو العلامات .

وتتجلى هذه الحقيقة بوضوح فى ميدان علم النفس حيث يلاحظ الباحث أن البنية لابد أن تكون نفسانية - جسمانية Pshcho-Sematique . بمعنى أنها لابد من أن تتمثل على شكل مركب مؤلف من مقولات واتجاهات وجدانية .

والعلوم الإنسانية فى هذا الاتجاه لابد أن تكون علومًا بنيوية هدفها دراسة العلاقات وصياغة الواقع فى مجموعة من المقولات المورفولوجية[2] .

(2) تحت تأثير الاتجاه البنيوى المعاصر انتقل مفهوم « البنية » من دراسة الوقائع اللغوية إلى داسة الوقائع الاجتماعية والأنثروبولوجية وقد جعل تطبيق هذا المفهوم على دراسة هذه الوقائع من العلوم الإنسانية نظريات نقدية أو ابستمولوجية إلى جانب اعتبارها نظريات وضعية . وقد استطاع ليفى اشتراوس أن يؤكد أن البنيوية الأنثروبولوجيا التى يتبناها هى منهج لا نظرية ليحاول إبراز دور العقلانية العلمية فى تأسيس الظاهرة الاجتماعية بوصفها واقعة علمية تقبل التحليل والصياغة الدقيقة مثلها مثل الظاهرة الطبيعية دون أن تكون أسيرة للمعرفة التجريبية .

وأنه يمكن الاستعاضة عن التفاسير السببية بالتفاسير البنيوية القائمة على مفهوم النسق أو النظام باعتباره مفهومًا أو نموذجًا نظريًا منطقيًا من شأنه أن يحيل الدراسة إلى نظرية افتراضية قائمة لى أساس تفسير ظاهرة تتضمن علاقات ذات طابع تبادلى داخل النظام أو النسق الذى تحمله فى باطنها .

وبنية الظاهرة الاجتماعية عند ليفى اشتراوس ليست بنية الواقع التجريبى ، بل الواقع العلمى الذى يبحث فيما وراء العلاقات العينية أو العلاقات اللاشعورية التى يمكن الوصول إليها بوساطة إنشاء استنباطى لبعض نماذج مجردة . محاولاً من وراء ذلك بناء فكرة عقلية تقوم بتفسير البنية التى تكمن وراء المظهر الواقعى للظاهرة الاجتماعية .

وهذا الاتجاه يرد العلاقات الاجتماعية إلى مجموعة من الأنماط الرياضية أو العلاقات المنطقية . وعلى هذا الأساس نفهم أن مفهوم البنية الاجتماعية لا ينصب على الواقع التجريبى بل على النماذج التى يتم إنشاؤها انطلاقًا من ذلك الواقع .

وقد طبق ليفى اشتراوس منهجه البنيوى على أنظمة القرابة ، وعلى دراسة الأساطير التى اعتبرها لغة أو لغات رمزية تمثل نسقًا من التقابلات . إن

---

(2) د. زكريا إبراهيم ، المرجع السابق ، ص . ص 34 - 38.

العقل البشرى واحد فى نظره وأن التفكير الأسطورى تفكير سابق على المنطق بمعنى أنه تفكير تصنيفى يستعين بمجموعة من المقولات التجريبية .

وهو يرى أن حقيقة أى أسطورة تتمثل فى العلاقات المنطقية الخالية من كل مضمون واعتبارها حديثًا أو مقالاً للمجتمع الذى نشأت فيه . وأنه يفهمها فى ضوء غيرها من الأساطير . وأنها مجرد لغة رمزية لا شعورية . إذ أن كل أسطورة تحمل فى باطنها قوانين بنيوية لا شعورية رمزية .

وقد اتخذ ليفى اشتراوس هذا الاتجاه من أجل إضفاء على الدراسة الاجتماعية طابعًا علميًا محضًا . وأن التجاءه إلى فكرة الرمزية اللاشعورية هو تأكيد لبقائها عند مستوى التنظيم النسقى الذى يتحقق على غير مستوى التنظيم النسقى الذى يتحقق على غير وعى فى الفكر البدائى أو الفكر المتحضر .

نظرًا لأن هناك وحدة أصيلة تجمع بينهما باعتبارهما مجرد طريقتين فى مواجهة الطبيعة ، من أجل تحطيم البداهات التى ارتكز عليها الفكر الغربى ، بالنسبة لموضوع أولوية التاريخ وتفوق التفكير العلمى على غيره من أساليب فى مواجهة العالم .

إن النظر إلى التاريخ بالالتجاء إلى معايير الارتقاء والتقدم والتطور تعتبر فى نظره غير منطقية لأنه لا يوجد تاريخ يتقدم أو يتطور بصفة دائمة . أما بالنسبة للتفكير العلمى والتفكير الأسطورى فإن بينهما اختلافًا حقيقيًا لا ينكره ولكن الخلاف الجوهرى بينهما يتمثل فى طريقة مواجهة العالم أو الطبيعة رغم أن كلا منها يتضمن فى ثناياه نظامًا أو نسقًا وأن التفكير الأسطورى يعمل على طريقة الصناعات اليدوية .

فى حين أن التفكير العلمى يبدع وسائله الخاصة من فروض ونظريات ولكن - فى رأيه - أن كلا النمطين من التفكير يعملان على محاولة التصدى للعالم وهنا يرى أن هناك وحدة عميقة بين الأسطورة والمنهج العلمى تتمثل فى عملية بناء أو إعادة بناء الأحداث انطلاقًا من بعض البنيات فالاختلاف القائم بينهما - من وجهة نظره - هو خلاف فى الوسائل المستخدمة لمواجهة العالم والطبيعة .

وعلى هذا الأساس نجد أن آراءه تحاول أن تقرب بين الحضارات الحديثة وغير الحديثة ومن ثم تحمل فى طياتها نزعة إنسانية جديدة فى مضمار العلوم الإنسانية .

ليس القصد من العرض السابق الوقوف على خصائص اتجاهات ومناهج العلوم الإنسانية الحديثة بقدر ما هو محاولة لاكتشاف المفاهيم الجديدة التى طرأت أو دخلت إلى مضمار هذه العلوم . وعلى هذا الأساس نفهم أنه من الضرورى أن يتضمن هذا العمل المفاهيم والمصلحات البنيوية فى مضمار علم النفس والاجتماع ، وعلم اللغة .

والملاحظ أن هذا العلم الأخير قد تطور تطورات جديدة وعميقة أساسها المفاهيم الجديدة التى وفدت عليه من التيار البنيوى فى مضمار اللغة .

(3) وعلم اللغة الجديد أو الحديث ينهض على عدة مفاهيم أساسية أولها التفرقة بين اللغة والكلام . باعتبار أن اللغة نظام اجتماعى مستقل عن الفرد فى حين أن الكلام يشكل جزءًا من الكيان الفردى وعلى هذا الأساس تفهم أن اللغة مجموعة من القواعد على صلة بنظام المجتمع فى حين أن الكلام فعل على صلة بالفرد بطريقة مباشرة وغير مباشرة .

وهنا نرى أن موضوع علم اللغة هو اللغة باعتبارها نظامًا قائمًا بذاته ومستقل عن الفرد وهى تفترض نسقًا أو نظامًا يجعل منها صورة أو نسقًا عضويًا منظمًا تحكمه مجموعة من العلامات . وهذه العلامات تنهض على أساس اتحاد بين صورة صوتية هى الدال وأخرى هو المدلول الذى ينهض على أساس تحديد المضمون .

وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن العلامة ليست سوى ذلك الكل الذى يتألف من الدال والمدلول وفى هذا الصدد نجد أن دى سوسير يشبه اللغة بورقة ذات وجهين الأول هو الدال والثانى هو المدلول . ومن هنا فإننا لا نستطيع أن نتحدث فى مجال علم اللغة عن إمكانية فصل الصوت عن الفكر ، والفكر عن الصوت نظرًا لأن ذلك الفصل يقضى على وظيفة كل من الدال والمدلول فى وقت معًا .

ودى سوسير يهدف من وراء هذه المفاهيم الجديدة أو الحديثة أن يجعل من اللغة نظامًا نوعيًا ينضم إلى مجال السيميولوجيا باعتبارها تحمل فى باطنها مجموعات هائلة من الأنسقة الرمزية التى تتكون منها الثقافة ، وما مجال السيمولوجيا سوى ذلك المجال الذى يتناول دراسة العلامات داخل الحياة الجماعية .

وتحت تأثير ذلك المنظور سعت العلوم الإنسانية نحو التمسك بمبادئ وقواعد السيميولوجيا لفهم الظواهر الاجتماعية أو الإنسانية أو الثقافية باعتبارها لغة تتألف من مجموعة من العلامات تنهض على أساسها اللغة السيكولوجية والسوسيولوجية .

وعلى هذا الأساس ارتبطت العلوم الإنسانية الحديثة باللغة باعتبارها بنية ذات طبيعة رمزية ، وسلوكًا شبيهًا بما عداه من أصناف السلوك البشرى . هكذا أصبحت الظواهر الإنسانية أو الاجتماعية تحمل فى باطنها علاماتها الخاصة . وأصبحت العلوم الإنسانية فى مختلف مجالاتها لا تتردد فى استعمال اللغة لفهم هذه الظواهر . وإن كان عالم الاجتماع أو النفس يقدم لنا دراسة علمية لا تتضمن عنصر التفسير ، نظرًا لأنه يدرس علامات الظواهر لذاتها عن طريق الوصف أو التحليل .

لكن الشىء الذى يهمنا فى هذا الصدد أن نؤكد أنه حريص على الكشف عن القانون الذى يحدث النسق الاجتماعى أو النفسى أو الثقافى عن طريق استخدام المنهج البنيوى .

(3) وقد تلاقت البنيوية ومضمار التحليل النفسى على يد العالم الفرنسى جاك لاكان الذى أنجز كتابًا ضخمًا يحمل عنوان « كتابات » فى مجال علم النفس والتحليل النفسى والدراسات الإنسانية والفلسفية .

وكانت هذه الدراسة من بين الدراسات الهامة الجديدة التى تلحق صاحبها بركب الحركة البنيوية النفسية . وهذا الاتجاه ينهض فى أساسه على البحث فى لغة اللاشعور باعتباره بنية وإعطاء هذه البنية الصدارة فى البحث فى مضمار التحليل النفسى .

وهذا المضمار الذى أسسه لاكان لا يقطع الصلة بالتحليل النفسى الفرويدى ولم يقتصر على إعادة بعض مفاهيمه بل حاول العمل على تأسيسه باعتباره علمًا يعتمد على نتائج العلوم الإنسانية مع العناية على وجه الخصوص بمفهوم « اللاشعور » و « الرغبة » و « التحويل » .

وقد عارض لاكان فى هذا الصدد النزعة الثقافية الأمريكية المتطرفة ، والنزعة الفرويدية المحدثة التى أغفلت دور اللغة التى تعد جوهر النظرية التحليلية ومحور اللاشعور الفرويدى باعتباره لغة تملك بنية خاصة . ولاكان يعتبر العودة إلى فرويد مجرد عودة إلى اللغة ويعتبر فرويد مجرد عالم لغوى .

فقد أظهرنا فرويد على أن اللاشعور يتكلم فى كل مكان . ومن هنا فإن دعوة لاكان إلى العودة إلى فرويد كانت حركة اكتشاف توحد بين اللاشعور واللغة على أساس أن اللاشعور نسق يتألف من شبكات من العقد والدلالات أو هى مقال أو حديث يتم حدوثه خارجًا عن الذات الواعية باعتبارها نتاجًا لنظام رمزى . وأن على التحليل النفسى أن يسترد أولوية البعد الأساسى للعملية التحليلية ألا وهى بعد الكلام من حيث أن الكلام هو الذى يخلع على وظائف الفرد كل ما له من معنى أو دلالة .

وأن اللاشعور يكون جزءًا من حديث الذات الفردية فى تحققها عبر البعد الاجتماعى . والجديد لدى لاكان هو التشديد على ضرورة ارتداد التحليل النفسى إلى الكلام أو اللغة باعتبارها الدعامة الحقيقية للتحليل النفسى كله .

ولا كان يعتبر أن اللاشعور بنية لغوية وأن التحليل النفسى يقوم بفض شفرات اللاشعور من حيث هو لغة رمزية .

وقد أدى ظهور هذا الاتجاه الجديد فى مضمار هذه العلوم إلى ظهور قضايا ومشكلات جديدة تتعلق بلغة هذه العلوم من زاوية المفردات أو المصطلحات التى تقوم على أساسها ، باعتبار أن هذه اللغة تسهم فى تحديد البناء والمعنى لهذه العلوم .

إن المفاهيم البنيوية الحديثة ، قد وضعت هذه العلوم فى أزمة تتجلى بعض مظاهرها فى إغفال مسألة الدلالة أو المعنى ، نظرًا لأن الظواهر

الإنسانية أو الاجتماعية أو الثقافية ظواهر ذات دلالات أو معانٍ ، والباحث أو العالم حين يقدم لنا بحوثه أو دراساته فى ظل نظام المفاهيم البنيوية الحديثة ، فإنه يقيمها على أساس بناء نماذج وإنشاء بنيات من شأنها أن تحيل موضوعات البحث أو الدراسة إلى مجرد تشكيلات صورية قائمة على أساس التحليل الوصفى للعلامات دون أن يحاول الوصول إلى مرحلة التفسير .

وهذا يعنى أن التطور الذى أحرزته العلوم الإنسانية فى ستينيات القرن الماضى كان تطورًا ناقصًا لأنه أغفل الجوهر الذى تقوم عليه هذه العلوم ، ألا وهو التأويل أو التفسير .

إن المفاهيم أو المصطلحات البنيوية التى واكبت ظهور هذا التطور كانت فى حاجة ماسة إلى تحديد مدلولاتها أو مضامينها الاجتماعية أو السيكولوجية أو الثقافية . والطريق إلى تصويب هذه المسيرة يتمثل فى وضع تعريف لمفاهيم العلوم الإنسانية بعامة والبنيوية خاصة . وهو الشأن الذى أقمنا على أساسه هذا القاموس لنحاول إلقاء بعض الضوء على بعض هذه المفاهيم وتحديد مدلولاتها .

إن تحديد مدلول المفاهيم عملية أساسية فى بناء فلسفة العلم ومعاييره النظرية والموضوعية . وهذه العملية ضرورية أيضًا بالنسبة لنصوص البحوث أو الدراسات التى يقوم بها الباحث فى مجال العلوم الإنسانية ، أو فى غيره من المجالات الأخرى .

إن هذه العملية تعد خطوة أساسية فى خطوات التعامل الموضوعى مع المفردات أو المصطلحات التى تعد جزءًا جوهريًا من النظرية التى أفرزتها ، وجزءًا من الموضوعية التى تسعى العلوم الإنسانية إلى تحقيقها فى معالجة الظواهر البشرية أو الثقافية . والموضوعية التى نقصد بها هنا هى موضوعية مشاهدة الظاهرة ، وموضوعية النتائج .

والعلوم الإنسانية - مهما كانت خصائص أو طبيعة موضوعاتها ، فإنها قد اتجهت فى العقود الأخيرة نحو الانفتاح على مجالات أخرى من بينها مجالات الدراسات اللغوية والأدبية ، ومجال الصناعة . وعلى هذا الأساس نفهم أن العلوم الإنسانية أصبحت بمفاهيمها الحديثة علومًا هامة لا يستغنى

عنها الدارس أو الباحث فى مضمار الدراسات الأدبية أو النقدية ، أو الباحث فى مضمار علوم التكنولوجيا النظرية أو التطبيقية . هذا فضلاً عن أن هذه العلوم نفسها قد فتحت مجالاتها بعضها على البعض .

فى ظل تقدم هذه العلوم ، يتحتم على الباحث أو الدارس فى مختلف مجالاتها أن يأخذ بمبدأ تضافر العلوم فى سبيل الكشف عن طبيعة الظواهر الإنسانية أو الثقافية فهذه العلوم تعتبر من وجهة نظرنا أكثر الميادين التى تبدو فى حاجة إلى موقف تكاملى . سواء بينها وبين بعضها أو بينها وبين الفلسفة . فالحقيقة الإنسانية أو الثقافية تزداد ثراء فى ظل اللقاء المتبادل بين الفلسفة وبين هذه العلوم .

على شرط أن لا تفقد هذه العلوم ذاتيتها فى خضم هذا اللقاء : نظرًا لأن هذه العلوم تجنى الكثير من وراء اتصالها ببعضها .

ولعل هذه العلوم بلقائها بغيرها من العلوم الإنسانية يؤكد النظرة الكلية المتكاملة فى معالجة الظواهر السيكولوجية ، أو الاجتماعية ، أو اللغوية ، أو غيرها من الظواهر الإنسانية الأخرى . وعن طريق هذا اللقاء يستطيع الباحث أو العالم أن ينظر إلى موضوعاته نظرة كلية فلسفية عميقة . الأمر الذى يؤدى به إلى الوصول إلى باطن هذه الموضوعات لا الاكتفاء بالنظر إليها من الخارج .

نظرًا لأنه يسعى إلى الكشف عما وراء الظواهر الإنسانية والسبر فى أغوارها . ويمكن أن يحقق هذا اللقاء انتعاشًا لهذه العلوم أو النظرة الابستمولوجية نظرًا لأن الحقائق الابستمولوجية سوف تزداد خصوبة وحيوية فى وقت واحد إذا ما اتصلت نظرات العلماء بنتائج البحوث والدراسات الإنسانية التى تنظر إلى الإنسان من خلال معاييره وقيمة السيكولوجية والاجتماعية والثقافية .

ويمكن من هذا المنظور أن يتوثق هذا اللقاء وتتصل الميتافيزيقا بصلب الدراسات الإنسانية ، وتساهم الفلسفة والعلوم الإنسانية فى الكشف عن حقيقة الظواهر البشرية وطبيعة تركيبها وعلل ظهورها أو اختفائها .

وإذا ما انتقلنا للحديث مرة أخرى عن أهمية اللقاء بين العلوم الإنسانية

وبعضها البعض وجدنا فى اللقاء بين علم النفس والاجتماع مثالاً حيًّا على ذلك ، وعلم النفس الاجتماعى هو أحد فروع علم النفس الذى يهتم بالدراسة العلمية للتفاعل الذى يحدث بين الفرد والآخرين . أو بعبارة أخرى دراسة سلوك الفرد كما يتشكل من خلال المواقف الاجتماعية المختلفة .

وعلم الاجتماع يهتم بدراسة سلوك الجماعة والتنظيمات الاجتماعية المختلفة ، أما علم النفس الاجتماعى فيدرس سلوك الأفراد فى الجماعات . والجماعة هى وحدة الدراسة فى علم الاجتماع والفرد فى الجماعة هو وحدة الدراسة فى علم النفس الاجتماعى . وعلى هذا الأساس نفهم أن هناك علاقة وثيقة بين العلمين أو لقاء متبادلاً بين كل منهما ، فدارس الاجتماع لابد له من التعرض لفهم سلوك الأفراد فى الجماعة التى يدرسها ، وكذلك فى علم النفس الاجتماعى لا يمكن للباحث فى ميدانه فهم سلوك الفرد إلا فى سياقه الاجتماعى .

هذا مثال مبسط لأهمية اللقاء بين فروع العلوم الإنسانية وبعضها وإن كنا نرى أن هذا اللقاء أو ذاك التضافر فى هذه العلوم مسألة ضرورية وعلى درجة كبيرة من أهمية . نظرًا لأن الظاهرة الإنسانية أو الثقافية ، من الظواهر المركبة والمتشابكة وذات جوانب وأبعاد متعددة وعلى هذا الأساس يجب أن تدخل دراستها فى اختصاص علوم متعددة : كعلم اللغة وعلم النفس ، والاجتماع ، .. إلخ .

فلا يمكن للعلوم الإنسانية أن تتقدم دون أن يكون بينها انفتاح أو لقاء . إذ لا يمكن لعلماء الاجتماع مثلاً أن يعالجوا موضوعاتهم دون أن يعودوا إلى أصول علم النفس أو علم الاقتصاد ، أو علم التاريخ ، أو غيرهم من العلوم .

وعلم الاجتماع نفسه على صلة بالفلسفة السياسية وفلسفة التاريخ ، والنظريات البيولوجية فى التطور . وعلى هذا الأساس نشاهد أن هذا العلم ليس فى عزلة عن بقية العلوم الأخرى والمثال الحى على ذلك هو لقاء علماء الاجتماع وعلماء الأنثروبولوجيا فى فهم وتفسير الظواهر الإنسانية . خاصة بعد اختفاء فكرة اعتبار المجتمعات البدائية تمثل موضوع الدراسات الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

كذلك أن علم الاجتماع وعلم الاقتصاد ارتبطا ارتباطًا وثيقًا منذ نشأتهما ، مثلما حدث بين علم الاجتماع والتاريخ أيضًا . حيث ظهرت فكرة التاريخ الاجتماعى أو تاريخ الطوائف والطبقات ولا يختلف الأمر فى العلاقة بين علم الاجتماع والفلسفة الاجتماعية والأخلاقية . فموضوع علم الاجتماع هو السلوك الاجتماعى الإنسانى الذى توجهه القيم . وعلى هذا الأساس فإن علم الاجتماع يدرس القيم والتقويمات الإنسانية بوصفها وقائع ويهتم أيضًا بمناقشة القيم فى سياقها الخاص وكما تتجلى فى الفلسفة الاجتماعية والأخلاقية .

ونتيجة هذا الانفتاح او اللقاء بين فروع العلوم الإنسانية وبعضها ظهرت فروع جديدة فى مضمار علم الاجتماع . ألا وهى علم الاجتماع الحضرى ، وعلم الاجتماع الاقتصادى ، والصناعى ، والسياسى ، والعائلى ، والأدبى.

وعلم الاجتماع الحضرى قائم على أساس دراسة المدينة باعتبارها متغيرًا أساسيًا ، والقيم الثقافية أيضًا باعتبارها متغيرًا ، فضلاً عن التكنولوجيا والقوة كمتغير كذلك . ويواجه هذا المجال مشكلة توضيح المفاهيم مثل المجتمع المحلى ، والمدينة والحضرية ، والمجتمع الحضرى والأيكولوجيا فهذه المصطلحات وغيرها مازالت تستعمل بأشكال مختلفة .

أما علم الاجتماع الاقتصادى ، فيقوم على دراسة البناء الفوقى Super Structur والبناء التحتى ، الذى يمثل مجموعة النظم القانونية والسياسية والدينية والجمالية .

ويهتم البحث الاجتماعى بثلاثة جوانب أساسية هى العوامل الفنية ، والأدوار المهنية والتنظيمات الرسمية .

أما علم الاجتماعى الصناعى فيقوم على دراسة الآثار المترتبة على تغيير الظروف الفيزيقية فى العملية الإنتاجية ، وكذلك دراسة النسق الاجتماعى للمصنع الحديث أو دراسة التنظيم الاجتماعى وتحليله فى أنماط مختلفة من التنظيمات .

وأيضًا دراسة العلاقات المتبادلة بين الصناعة والمجتمع المحلى باعتبار أن التنظيم الصناعى لا يوجد فى فراغ .

أما علم الاجتماع السياسى فيقوم بدراسة الظواهر والنظم السياسية فى ضوء البناء الاجتماعى والثقافة السائدة فى المجتمع . أما علم الاجتماع العائلى فيهتم بدراسة الأسرة باعتبارها جماعة اجتماعية تقوم على عناصر بيولوجية ونفسية وثقافية .

أما علم اجتماع الأدب فيقوم على دراسة العلاقة بين الأعمال الأدبية والمجتمع فى فترة تاريخية محددة ، من زاوية البحث فى طبيعة العلاقة بين النظرة التى يريد الكاتب إيصالها إلى العالم بمعنى طبيعة وعية والعلاقة بين ذلك التعبير عن شخصه وعن العصر الذى يعيش فيه بوساطة البناء والمضمون اللذين أقام عليهما عمله .

والملاحظ أن القسط المشترك بين مختلف هذه العلوم هو بعض المفاهيم والأساليب الخاصة بالدراسة أو البحث . فهناك مثلاً الدراسة الوصفية التى تقوم على أساس عملية المسح Survey أو محاولة تنظيم الحصول على معلومات من جمهور معين أو عينة معينة ، وذلك عن طريق استخدام استمارة البحث ، أو المقابلات . والوظيفة الأساسية للمسح هى توفير المعلومات حول موقف أو مجتمع أو جماعة .

وهناك نوعان من المسوح الأول يطلق عليه اسم المسوح الشاملة Total Surveys والثانى يطلق عليه اسم المسوح بالعينة Sample Surveys ويقصد بالمصطلح الأول دراسة كل أعضاء أو جماعة معينة ، بقصد الحصول على وصف ثابت ودقيق لسلوك الجمهور الذى يمثل موضوع البحث أو الدراسة ، وفى هذا الصدد تعتبر طريقة دراسة الحالة Case-Study method نموذجًا للبحث الوصفى .

وهناك طريقتان شائعتان فى دراسة الحالة وهما : تاريخ الحالة Case history والتاريخ الشخصى للحياة Life history وترجع أهمية دراسة الحالة إلى كونها تمكن الباحث من الوصول إلى أعماق الظواهر أو المواقف التى يقوم بدراستها .

أما قدرة الباحث على توفير كافة الظروف التى من شأنها أن تجعل ظواهر معينة ممكنة الحدوث فى الإطار الذى رسمه الباحث فإن ذلك يطلق

عليه اسم « التدريب » وهذا هو المعنى العام للمصطلح لكن قد يستخدم أيضًا بمعنى خاص ، فيراد به الدلالة على الخبرة التى يكتسبها العالم بتصحيح آرائه النظرية أو العملية .

ويعتمد البحث التجريبى على عدة خطوات هى تحديد المشكلة المراد دراستها ، وصياغة عدد من الفروض تفسر هذه المشكلة ، ثم تحديد المتغير المستقل Independent variable والمتغير التابع Dependent variable ثم كيفية قياس المتغير التابع وتحديد الشروط الضرورية للضبط والتحكم .

تلك هى الأسس التى يرتكز عليها المنهج التجريبى فى العلوم الإنسانية بعامة وعلم النفس والاجتماع بخاصة . وهذا المنهج يجد مكانه الطبيعى فى العلوم الطبيعية أكثر من العلوم الإنسانية .

(4) أن مفاهيم علم الاجتماع والأنثروبولوجيا تتلاقى معًا فى دراسة الظواهر الإنسانية . وإن كان هناك اختلاف بين المجالين ، ترجع إلى اختلاف موضوع الدراسة . فلقد انشغل علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية بدراسة المجتمعات الصغيرة ، باعتبارها مجتمعات لا تخضع نسبيًا للتغير ، أو تتغير ببطء رغم أن أغلب المجتمعات البدائية ، قد تغيرت نتيجة تأثير الأفكار والتكنولوجيا الغربية ، بحيث أصبح عالم الأنثروبولوجيا يسعى إلى الاهتمام بنفس المشكلات القيمية التى يواجهها عالم الاجتماع حينما يدرس المجتمع الذى يعيش فيه أو مجتمعات ذات حضارة مماثلة وعلى هذا الأساس فإن موضوع الدراسة الآن هو المجتمعات أثناء عملية النمو الاقتصادى والتغير الحضارى . وهذا الموضوع يدرسه عالم الاجتماع والأنثروبولوجيا على السواء .

ومع هذا فلا تزال التفرقة قائمة بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا فى ضوء اختلاف المصطلحات . لكن الالتقاء بين العلمين واضح برغم كل ذلك .

كذلك فى أن علم النفس يلتقى بعلم الاجتماع ، باعتبار أن التغيرات السوسيولوجية والسيكولوجية للظاهرة الإنسانية يكمل أحدهما الآخر . وخاصة علم النفس الاجتماعى .

والواقع أن علم النفس برمته يمكن اعتباره اجتماعيًا إلى حد ما باعتبار

أن الظواهر النفسية تظهر فى سياق اجتماعى يؤثر فيها إلى حد ما . وهذا يعنى أن علماء النفس الاجتماعى غالبًا ما يشعرون برابطة وثيقة تربطهم بعلم النفس العام وعلم الاجتماع .

وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد قد أصبحا أشد ارتباطًا فى السنوات الأخيرة وذلك يرجع إلى اهتمام علماء الاقتصاد بدراسة العوامل الاجتماعية المؤثرة فى النمو الاقتصادى بحيث أصبح من الضرورى على عالم الاقتصاد أن يتعاون مع عالم الاجتماع .

ولا يختلف تلاقى هذه العلوم عن تلاقى علم السياسة ، والتاريخ ، والفلسفة مع علم الاجتماع أيضًا وعلى هذا الأساس يجب أن ندرك وحدة العلوم الإنسانية بوصفها وحدة فى المنهج والأطر التصورية .